(٢٥) لويس سوليفان : تاريخ فكرة

بقلم : وين أندروز

فى عام ١٩٢٤ عندما نشر المهندس المعمارى الأمريكى العظيم لويس سوليفان سيرته الذاتية- كان من الواضح أنه يقوم بدور المتحدث والمدافع عن قضية خاسرة، وعلى الرغم من أنه هو وشريكه دانكمار آدلر قد منحا شيكاغو أعظم دار أوبرا فى العالم ، وعلى الرغم من أنه أثبت أنه مصمم لا يشق له غبار فى مجال ناطحات السحاب -- فقد نسيه الناس تماماً فى خلال العشرينيات . وفى الرابع عشر من أبريل عام ١٩٢٤ مات فى فندق بشيكاغو بلا أى مظاهر تدل على الدعة والرفاهية . وكان قد بلغ السابعة والستين فى ذلك الحين ، وقبل ذلك ظل لعشرين سنة بدون أية عملية رئيسية واحدة طُلِبَ من مكتبه أن يقوم بها .

ولم تكن قضية فن المعمار الحديث التى قدم سوليفان من أجلها إنجازات بارزة على بال أحد فى أمريكا العشرينيات فقد كان ذلك هو العقد الذى لم ينجز فيه فرانك لويد رايت – أكثر تلاميذ سوليفان نبوغاً – أكثر من سبع عمليات . وكان هو العقد الذى وجد فيه نفسه فنانو كاليفورنيا المحدثون المناخ الفكرى أقل تناسباً واستعداداً لتقبل الجديد على الرغم من النجاح الذى أحرزوه قبل ذلك . وقد ألقى ببرنارد مايبيك فى زوايا الإهمال والنسيان ، وانطبق الوضع نفسه على الأخوين «جرين وجرين» ،وإيرفنج جيل الذى تخرج فى مكتب سوليفان مثل رايت لم يكن هناك أمل فى الساحل الغربى حتى عام ١٩٢٨ عندما صمم ريتشارد شندلر

القادم من فيينا منزلاً جذاباً بطريقة مدهشة لشخص يدعى س . هـ. وولف على جزيرة كاتالينا .

وأَنْ نستعرض «تاريخ فكرة» فى عام ١٩٢٤ شيء وأَنْ نذكرها الآن شيء آخر تماماً : ذلك لأن التجريب مسموح به فى عصرنا هذا ، هذا إن لم ينل التشجيع التام . والفن المعمارى الحديث يمكن أن يشاهد فى كل مكان سواء كان جيداً أو سيئاً أو غير هذا أو ذاك . وربما يكون الآن هو اللحظة المناسبة تماماً للنظر إلى هذا الكتاب بعين الاعتبار . إننا نرحب بالنظرة الموضوعية التى كانت تعد خالية من الذوق والرشاقة فى السنة التى مات فيها سوليفان .

إن «تاريخ فكرة» تاريخ إنسان فاشل ، ونعترف بأنه الفاشل الذى لن يتوقف عن إشاعة السحر فى نفوس المعماريين الطموحين . ومثل فاشلين كثيرين كان سوليفان سجين طفولته التى لم تكن حياة عاشها مرة واحدة ثم دمرتها انتصارات السنوات الأخيرة ، بل كانت حياة عاشها إلى الأبد . وقد أوضح هذه الحقيقة عندما كرس ثلثى كتابه للفترة التى سبقت بداية دراسته للفن المعمارى فى معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا .

ولد فى بوسطن فى الثالث من سبتمبر عام ١٨٥٦ ابناً لأستاذ آيرلندى فى الرقص والعزف على البيانو ، نصفه ينتمى إلى أصول فرنسية سويسرية والنصف الآخر ينتمى إلى أصول ألمانية ؛ وقد جاء إلى أمريكا من جنيف وهذا يعنى أنه حكم عليه بأن يعيش منبوذاً فى مجتمع نيوإنجلاند الذى لم يحمل للمهاجرين الآيرلنديين سوى مشاعر الاحتقار ! وعندما وجد نفسه معزولاً تلقائيا عن العالم الذى كان ينضح بالنجاح فى بوسطن – راوده حلم أن يفرض إرادته برغم كل شيء ! يقول لنا : «ذات يوم فى شارع كومنولث شاهدت رجلاً ضخماً ذا طلعة مهيبة ، وقد أرسل لحيته وارتدى القبعة العالية ، والمعطف الخارجى الأسود . خرج من مبنى قريب ودخل عربته ، ثم أشار إلى الحوذى أن ينطلق به . » تعجب من السر الذى يكمن وراء كل هذه الهيبة ، وسأل عاملاً عن ذلك ، وكانت الإجابة : «لماذا تسأل ؟ إنه المهندس المعمارى الذى أقام هذا المبنى ، إنه يرسم الحجرات على الورق ، ثم يرسم صورة للوجهة ، ونحن نقوم بالعمل تحت إشراف ريسنا . . لكن المهندس المعمارى هو ريس كل واحد منا » .

هكذا كان طموح سوليفان لدرجة أنه لم يقنع بالتدريس فى معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا . حتى على الرغم من أن أستاذه وليم ر . وير قد حقق شهرة لا يمكن تجاهلها . وبالاشتراك مع هنرى فان برانت المؤمن إيماناً مطلقاً بمدرسة ريسكين والذى ترجم الذوق

فيوليت إلى الإنجليزية – وكان وير مسئولاً فى عام ١٨٧٥ عن القاعة التذكارية فى جامعة هارفارد .

وفى بحثه عن النصيحة والوظيفة شد سوليفان الرحال إلى مدينة نيويورك . «وكان ريتشارد م . هنت رائد الفن المعمارى هناك وزعيم الحرفة كلها . وزاره لويس فى عرينه حيث أدلى إليه بخططه ، فربت على ظهره وشجعه كناشئ واعد» . وكان هنت أول أمريكى يتخرج فى مدرسة الفنون الجميلة فى باريس ، ومن الواضح أن الشاب قد تعلم فى مكتب هنت أن أفضل تعليم يمكن أن يتلقاه الإنسان فى العالم لا يوجد إلا فى باريس .

وكان على سوليفان أن يشغل أول وظيفة له فى فيلادلفيا فى مكتب فيرنيس وهيويت اللذين مازالا يُذكران حتى اليوم ، بل يثيران الإعجاب من حين لآخر بسبب الأبنية التى أقاماها بطول ضفة النهر والتى تتميز بوحشيتها المخيفة . لكنه طرد عند اندلاع اضطرابات عام ١٨٧٣ التى وضعت نهاية لفترة تمرينه على المعمار .

وفى اليوم السابق لعيد الشكر ١٨٧٣ وجد نفسه فى شيكاغو المدينة التى أعيد بناؤها نتيجة للحريق الهائل الذى شب فيها عام ١٨٧١ . ويحكى لنا أن : «لويس وقف على المنصة ، توقف ثم نظر تجاه المدينة والحطام يحيط به ، ثم رفع عينيه إلى السماء ، وفى وحدته ثبت قدمه على الأرض ورفع يده وصاح بملء فمه : هذا هو مكانى ! »

تلك كانت أكبر غلطة ارتكبها لويس سوليفان فى حياته : فشيكاغو مدينة جافة صارمة عنيفة أكثر من اللازم بالنسبة لرجل مثالى . وكان مثله فى ذلك مثل رالف والدو إيمرسون الذى ساند الرأى الذى يؤكد أن «الحياة الفكرية يمكن المحافظة عليها نظيفة وصحية إذا قرر الإنسان أن يعيش حياة الطبيعة وألا يدخل إلى عقله الصعوبات التى لم تكن من صنعه» ، وكان فى استطاعة سوليفان أن يغلق عينيه حتى لا يرى الحقيقة إذا كانت قبيحة !

لقد أعلن فى «تاريخ فكرة» «أنه لم يحدث فى تاريخ الإنسان أن كان هناك ضمان راسخ لفكرة التفاؤل كما هى الحال فى عصرنا الذى نعيشه بالفعل . إن الجمال والعاطفة والمجد فى الماضى – كل ذلك سيُبعث فى جمال جديد ، وعاطفة جديدة ، ومجد جديد كلما اقترب الإنسان من أخيه الإنسان ، وتعرف عليه ، وابتهج بصحبته ، فإن ذلك هو الميلاد الجديد فى قوة» .

الحقيقة أن الرجال كانوا يتصارعون والرجال كل يوم من أيام الأسبوع فى شوارع شيكاغو

ولم تكن النتائج إيجابية دائماً ، كان على سوليفان أن يعيش ويعاصر اضطرابات ألهاى ماركت عام ١٨٨٥ ، والمحاكمة التى لم تكمل للفوضويين لدورهم فى مصرع ستة أشخاص وجرح اثنين وسبعين ، وعلاوة على ذلك مطاردة المحافظ جون بيتر آلتجيلد لجرأته فى الحصول على عفو عن ثلاثة من الفوضويين الذين لم يشنقوا . كان عليه أيضاً أن يعيش خلال إضراب مدينة بولمان عام ١٨٩٤ الذى كشف بطريقة رائعة عن شخصية جورج مورتيمر بولمان «إن رجلاً لم يكن على استعداد للقاء رجاله فى منتصف الطريق لهو أحمق مأفون وملعون من الله ! » وذلك على حد تعليق مارك حنا على صلابة رجل الصناعة وسيد مدينة بولمان النموذجية بإلينوى .

ولم تكن شيكاغو التى نظر إليها سوليفان نظرة مثالية تلك المدينة التى يعرفها جيداً رجال الأعمال العظام من أمثال مارشال فيلد و ب . د .آرمور وجوستاف ف . سويفت . إن فيلد الذى جمع مائة وعشرين مليوناً من الدولارات – أعظم ثروة فى تاريخ المدينة – لم يأسف إطلاقاً لأن التعليم الجامعى فاته . لقد قرر أنه «بالنسبة لمعظم الشباب فإن التعليم الجامعى يعنى أنه فى الوقت الذى يجبُ فيه تماماً أن يتشربوا بمبادئ العمل ، وأن يتكاتفوا فى حيوية ونشاط من أجل العمل الذى سيستغرق حياتهم كلها – فإذا بهم يرسلون إلى الجامعة ! بهذا يمضى كثير من الشباب فى هذه الفترة الحيوية فيما يتذكرونه فيما بعد أنه أبهج فترة فى حياتهم . . وعندما يتخرج الشاب فى كليته فإنه غالباً ما يفقد لياقته وقدرته على الانغماس فى العمل الشاق من جراء ذلك الوقت الذى قضاه منعماً ! وتكون النتيجة الفشل فى الإمساك بالفرص التى كان يمكن أن تفتح الطريق لمستقبل ناجح ! » .

أما آرمور الذى لم يقلّ مصنعه للتعليب والتغليف فى قيمته وضرورته للمدينة عن مؤسسة فيلد ذات الأقسام المتعددة التى تبيع كل ما يحتاج إليه الناس فقد بارك بكل جوارحه الأفكار والأحاسيس التى تدفع التاجر إلى العمل ؛ وقال بصراحة : إنه كان يحب البدء فى العمل «قبل أن يظهر هؤلاء ذوو الأظافر المطلية اللامعة ! » أما بالنسبة لسويفت منافس آرمور فقد وقف ضد كل التفاهات التى لا معنى لها ، وعبر عن فكرته حين قال : «لا يوجد شاب غنى بما فيه الكفاية لدرجة أنه يدخن سيجاراً بخمسة وعشرين سنتاً» .

تلك كانت فلسفة سادة شيكاغو . والحقيقة التى تؤكد أن الحياة بحيوية مثلهم ومبادئهم نفسها كانت شيئاً أكثر من المستحيل ، هذه الحقيقة لم تثبط عزيمة المهندسين المعماريين الذين –

على الأقل – قاموا بعمليات فى مجال هؤلاء العالقة .

وكان سوليفان قد قابل الماجور وليم لى بارون جينى الذى اشتهر بمرحه وحيويته والذى كان عليه أن يصمم فى عام ١٨٨٣ « مبنى التأمين الأسرى » الذى يعد عادة أول ناطحة سحاب ، أو أول مبنى مرتفع من الهيكل الصلب . كذلك قابل مارفن روس الذى قام بالاشتراك مع شريكه وليم ا . هولابيرد بتشييد مبنى تاكوما فى عام ١٨٨٥ ، وهو ابتكار أكثر رشاقة بكثير من المبانى التى سبقته ، ويعد عادة أول ناطحة سحاب ينهض فيها الهيكل بالثقل كله الذى كانت الجدران تحمله فى المبانى التقليدية .

وقد جاهد سوليفان فى مكتب جينى حتى يوليو ١٨٧٤ عندما أبحر إلى فرنسا حيث « مدرسة الفنون الجميلة » . ومثل هنرى هوبسون ريتشاردسون و س . ف . ماكيم وكثيرين غيرهما من المهندسين المعماريين المرموقين فى أمريكا القرن التاسع عشر – كان على سوليفان أن يتلقى ويستوعب الفائدة التى تعود عليه من التدريب الفرنسى ، وإنه لمن المثير أنه لم يقلل فى كتابه « تاريخ فكرة » من شأن « مدرسة الفنون » على الرغم من أنه صرح بأن « الاعتقاد السائد فيما يتصل بهذه المدرسة العظيمة – أنها على الرغم من بلوغها درجة الكمال فى مجال الصنعة – فإنها افتقرت إلى روح الغضب الجارف المرتبط بالإلهام العزيزى » . وذلك أسلوب آخر يقوم من خلاله : إنه شعر بأنه فى إمكانه أن يعلم نفسه كلَّ ما تلقاه فى المدرسة !

وكان لقاء سوليفان بالمسيوكلوبيه فى باريس هو تجربته (الوحيدة) التى لا تذكر بالخير : فقد كان أستاذه فى الرياضيات وكان يبالغ بقوله : « إننا هنا نقدم فروضاً هى بمثابة القواعد الشاملة التى لا تقبل أى استثناءات » . وقد نظر سوليفان إلى أستاذه نظرة جدية ، بل جدية أكثر من اللازم . « وفى الحال كانت الكلمات تومض ، وهناك برزت رؤية ومعها التفسير الملازم لها ، كانت استفساراً من وحى اللحظة ومعه إجابته الفورية . كان الاستفسار : إذا كان من الممكن القيام بهذا فى الرياضيات فلماذا لا يتم عمله فى الفن المعمارى ؟ وكانت الإجابة الفورية : يمكن هذا ، وسيتم عمل هذا ! لم يفعل هذا أحد من قبل ! . . ولكننى سأفعل ! » ومن خلال هذا الانهماك فى جملة المسيوكلوبيه جاءت أسوأ معادلة وصل إليها سوليفان وهى : « الشكل يتبع الوظيفة أو الغرض » وقد أكد قوله – إن هذا « سوف يعنى على المستوى العملى – أن فن المعمار ربما أصبح مرة أخرى فنًّا حيًّا إذا التزم بهذه المعادلة » .

ولا ضير فى القول بأن هذا التبسيط السخيف المبالغ فيه قد ألحق بفن المعمار ضرراً لا يمكن

وصفه : لقد ترددت معادلة «الشكل يتبع الوظيفة أو الغرض» فى كتب لا حصر لها كتبها نقاد لم يلقوا بنظرة واحدة على أى مبنى من تصميم سوليفان ؛ فقد أدى شعاره هذا بأناس سذج كثيرين إلى الاعتقاد بأن سوليفان نفسه صمم مبانيه طبقاً لهذه القاعدة ! ولا يمكن أن يكون هناك شيء أبعد عن الحقيقة من هذا ! وعلى الرغم من أن هذا ليس المجال الذى نناقش فيه تاريخ حياته كمهندس معمارى فإنه من الواضح أنه بالممارسة وجد من الشجاعة ما جعله يبحث عن حل جديد لكل مشكلة وردت إلى مكتبه ، وخاصة بعد تسلمه مع شريكه دانكمار آدلر عملية «قاعة المدينة الكبرى» .

ولم يمض وقت طويل بعد عودته من باريس حتى انضم سوليفان إلى مؤسسة د . آدلر وشركاه فى شيكاغو . وفى الأول من مايو عام ١٨٨١ صارت المؤسسة باسم آدلر وسوليفان . وفى سن الخامسة والعشرين «أصبح مهندساً معمارياً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان أمام العالم كله» ولم تبرز الأعمال الأولى للمؤسسة لكن فى التاسع من ديسمبر عام ١٨٨٩ تم افتتاح «قاعة المدينة الكبرى» ، وهى مبنى ضخم معقد يحتوى على بناء للأوبرا وفندق ، وكان افتتاحها للجمهور بمثابة تأكيد لشهرته . وبوقوف آدلر إلى جانبه ليشرف على تذليل الصعوبات الهندسية بدا كما لو كان من المستحيل قهره !

وقد كتب سوليفان عن آدلر يقول : «كان يهودياً ثقيل الوزن ، قصير الأنف ، طويل اللحية ، له جبهة كالقبة الرائعة التى تتوقف فجأة عند كتلة صلبة من الشعر الأسود . كان صورة للقوة الصامدة سواء كانت جسدية أو عقلية» . لم يكن هذا كل ما فى الأمر . فقد كان آدلر رجلاً عملياً إلى حد بعيد ، ومن الواضح أنه لم يستسلم قط لشطحات المثالية التى لم يستطع شريكه مقاومتها. وعندما بدأت المؤسسة سنواتها العجاف – كما حدث لمؤسسات أخرى كثيرة من جراء الانهيار الاقتصادى عام ١٨٩٣ – استقال آدلر لكى يعمل مديراً لمبيعات شركة للروافع والمصاعد ، وأصبح سوليفان وحده ، وفى وحدته فقد كل إحساس بالسعادة ! أحس بالضياع بدون آدلر ، وخاصة فيما يتصل بالعملاء المهمين وكيفية معاملتهم ؛ لذلك كان آخر عمل ضخم ورئيسى له فى عام ١٩٠٠ عندما صمم وأقام المبنى الرائع لمحال شليزنجر ومايز فى شارع ستيت ، وهو المحل الذى يشغله الآن كارسون وبيرى سكوت وشركاؤهما ، وفى سنواته الأخيرة انحدرت به الحال إلى تصميم البنوك للمدن الريفية فى الغرب الأوسط . كانت هناك تحف ضمن هذه الأعمال ، لكننا سنأسف دائماً ؛ لأنه لم يمنح فرصاً أعظم !

وبالطبع فقد كان لسوليفان تفسيره الخاص لتعليل فشله ، وهو تفسير يجب أن يوضع فى الاعتبار تماماً . ففى الوقت الذى انتهى فيه من كتابة سيرته الذاتية قرر أن هناك شيئاً واحداً فقط يقع عليه اللوم : إنه «معرض العالم» فى عام ١٨٩٣ .

كان المعرض أنجح معرض شهده تاريخ أمريكا ، وفى يوم الإفتتاح تدفق من بواباته أربعون ألفاً من الزوار . وكان قد عهد به إلى مؤسسة بيرنهام وروت فى شيكاغو ، وهى المؤسسة المعروفة دولياً بإنشاء ناطحات السحاب الضخمة الهائلة التى أقامتها فى منطقة الساحل . ومثل «قاعة المدينة الكبرى» التى أقامها آدلر وسوليفان ، كانت هذه المبانى تدين بالكثير للنموذج الذى قدمه هنرى هوبسون ريتشاردسون الذى يمكن رؤية تكتيله الرائع للجرانيت فى مبنى محال مارشال فيلد لبيع الجملة . أما الذى حدث بالضبط فجون روت – الذى مات قبل افتتاح المعرض بعامين – ودانيال هدسون بيرنهام ، كلاهما لم يصمم مبنى واحداً فى المعرض . وبدلاً من ذلك قاما بدعوة المهندسين المعماريين الذين يعملون فى الشرق وعلى رأسهم ريتشارد موريس هنت ومؤسسة ماكيم وميد وهوايت للتعاون فى إنجاز المشروع . أما سوليفان فلم يهمل بصفة شخصية ، بل مُنح الفرصة لكى يصمم « مبنى قطاع النقل» الذى يُعد مدخله الذهبى المذهل نموذجاً لا يصدق فى عبقريته فى مجال الديكور ! وفى ذلك الوقت كان من الواضح أنه ليس لديه ما يشكوه !

لكن فلننصت إليه وهو يتكلم فى «تاريخ فكرة» عن موضوع المعرض :

«كانت حشود الزوار تملأ النفس دهشة ، لقد آمنوا بأن ما وقعت عليه عيونهم كان بمثابة رؤية باهرة لفن المعمار ، وهو ما لم يعرفوا عنه شيئاً من قبل ؛ لكى يصدروا مثل هذا الحكم بناء على المقارنة . كان بالنسبة لهم رؤيا حقيقية ورسالة أوحى بها من الأعالى . وبناء عليها شكل خيالهم مُثلاً جديدة . لقد غادروا المعرض ، وانتشروا مرة أخرى فى الأرض . وعادوا إلى بيوتهم . وكان كل واحد منهم يحمل بين جوانحه ظل السحابة البيضاء ، ويتشرب داخله بأكثر السموم أصالة وبطئاً فى سريان المفعول . كانت بمثابة الأبخرة الضبابية المتصاعدة من الأرض إلى باطن الظل الأبيض لثقافة أسمى وأعلى . . .

وسوف يستمر الدمار الذى أحدثه «معرض العالم» لمدة نصف قرن من تاريخه ، هذا إذا لم يكن أطول . لقد تغلغل إلى أعماق تكوين العقل الأمريكى محدثاً إصابات تدل على الانهيار العقلى ! » .

ولكى نبسط الأمور فقد كان سوليفان يعترض فى عام ١٩٢٤ على الدعاية الهائلة التى قام بها المعرض للمهندسين المعماريين الذين عملوا فيما يمكن أن يسمى بإحياء عصر النهضة

فإذا عدنا إلى عام ١٨٨١ فسنجد أن ريتشارد موريس هنت كان سعيدا بالفكرة التى تساوى تماما بين قصر على طراز عصر الإحياء الفرنسى المبكر وبيت . و . ك فاندربيلت الجديد المقام فى الشارع الخامس فى مدينة نيويورك . كان هذا القصر بناء وظيفيًّا إلى حد كبير ، وأكد فى ذهن سكان نيويورك أهمية آل فاندربيلت .

وهنا فى ٢٦ من مارس ١٨٨٣ أقامت السيدة فاندربيلت حفلاً يشار إليه بالبنان أعاد إلى العائلة مكانتها الاجتماعية التى أنكرت طويلاً . ولم يكن السادة ماكيم وميد وهوايت فى حاجة لكى يقال لهم : إن هنت وجد الحل المثالى لمعضلة قصر المليونير . فهجروا عملهم الأصيل و « الحديث » الذى اعتمد على أسلوب البناء ذى السقف الخشبى ، ويمموا وجههم شطر عصر الإحياء بحثاً عن الإلهام ! وكان منطقهم فى هذا أن التخطيط الرسمى لمفهوم الإحياء يتناسب بطريقة مثالية والحياة الرسمية للموسرين .

هكذا كان « معرض العالم » فى عام ١٨٩٣ – بمبانيه الكلاسيكية وبحيراته الشاعرية انعكاساً فى شيكاغو للمحاولات التى بذلت بنجاح فى نيويورك . ألم يكن من الممكن التسامح مع مثل هذا الانعكاس وقبوله ؟ إن ثورة سوليفان الغاضبة توحى بأنه اعتبر هنت وماكيم وميد وهوايت وأتباعهم يقفون على درجة لا تعلو تلك التى يقف عليها المجرمون !

ويجب الاعتراف بأن سوليفان كان واحداً فقط ضمن الطابور الطويل للنقاد المحدثين الذين شوهوا عصر الإحياء ، ويجب أن نتذكر أن بوجين لم ييئس من رؤية كاتدرائية سان بيتر وهى « يعاد تشييدها بأسلوب أفضل » .

أما بالنسبة لراسكين فقد قرر أن الفن المعمارى للإحياء » لم يكن عنده رحمة . لقد ابتهج به الأمراء والأسياد ذوو الأنوف الشماء ! لكنه كان ينضح بالإهانة للفقراء فى كل خط من خطوطه » وبتسلم هذا المفتاح من راسكين ذهب وليم موريس إلى الحديث عن « موت عصر الإحياء أو نومه الذى يشبه سكرات الموت ! » .

وأخيرا صدر حكم الدوق فيوليت على عصر الإحياء كما فسر فى القرن السابع عشر فى فرنسا : « فيما يتعلق بالفن فقد نجح لويس الرابع عشر فى أن يسحق تماماً العبقرية الطبيعية والأصيلة للشعب الفرنسى ؟ » .

من هذه المقتطفات يمكننا أن نستنتج نتائج صحيحة تماماً تتمثل فى أن ما نسميه بالفن المعمارى الحديث نبع من عصر الإحياء القوطى وأنبيائه الذين كانوا على استعداد لاحتقار وإهمال الرواد الإيطاليين فى القرن السادس عشر ومعهم الذين نقلوا تقاليدهم إلى فرنسا وإنجلترا .

ولسوء الطالع فقد بدا سوليفان على أنه أكثرهم استماتة فى رفضه لما شبهه بالمرض الإيطالى أو بالداء الإيطالى . وإذا كان قد قدر له أن يشق طريقه بهذا الأسلوب فقد كان من الممكن محو كل لمحة من عصر الإحياء أو النهضة من على الخريطة فى أمريكا . فإنه يتحتم علينا أن نتخلص من التحف التى شيدت فى عصر الاحتلال مثل بيت مايلز بروتون فى مدينة تشارلستون ويجب علينا أن نغض الطرف عن قاعة جيفرسون الكبرى الدائرية ذات القبة فى جامعة فرجينيا . حتى مبنى الكابيتول فى واشنطن ينبغى علينا أن نسويه بالأرض !

ويبدو أن سوليفان افترض من خلال لغته الناضحة بالمرارة والتهجم أن الفن المعمارى الحديث كان فى أحسن حالاته زهرة شاحبة يمكن أن تذبل تماماً إذا ما وضعت فى ظل الأبنية التى تستوحى عصر النهضة فى خطوطها . وفى الواقع فإن النتيجة كانت على النقيض من ذلك تماماً .

وفى خلال السنوات الخمس والعشرين التالية للمعرض . وفى حين كان نشاط سوليفان يتضاءل – كان تلميذه وصبيه فرانك لويدرايت ناجحاً نجاحاً مجيداً ، فلم يشيد فقط مصنع لاركين العظيم فى بافالو ، بل عشرات من الأبنية البارزة عبر الغرب الأوسط ، ولم يكن وحده فى الميدان ، فلا يستطيع أى مؤرخ أن يهمل عمل الأعضاء الآخرين فى مدرسة شيكاغو ، وهم الذين يقال عنهم : إنهم ساروا على نهج سوليفان بدون استثناء : فرجال مثل بارى بيرن ، وهيو جاردن ، وولتر بيرلى جريفين . وشركة جوينزل ودراموند ، وجورج و . ماهر ، ودوايت هـ . بيركنز ، وشركة بيرسيل وايلمسلاى ، كل هؤلاء قاموا بإنجازات بارزة برغم أنف المعرض ! حقاً إن الفن المعمارى تدهور فى العشرينيات من القرن العشرين ، لكن من الصعب تحديد مسئولية المعرض عن هذا التدهور .

إذن فكتاب « تاريخ فكرة » من الكتب التى يرجع إليها بحرص ووعى . إنه إنجيل مهندس معمارى عظيم جداً لم يستطع على الإطلاق أن يواكب روح شيكاغو .

واليوم مع استقلال الفن المعمارى الحديث واعتماده على نفسه – يمكننا أن نكون أكثر

تسامحاً من سوليفان مع الفن المعمارى الذى لا يمت للحداثة بصلة . وربما كان أكثر الناس تسامحاً فى هذا المجال هم المهندسين المعماريين المحدثين الذين يعدون قادة بمعنى الكلمة .

وعندما دمرت حديثاً محطة بنسلفانيا التى شيدها ماكيم فى نيويورك – كان هناك طابور من الاحتجاج على مساواة هذا المبنى الكلاسيكى بالأرض ! وقد قاد موكب الاحتجاج كل من فيليب جونسون وأرملة إيرو سارينين .